# مركزية الحضارة الغربية ... مستقبل الحضارة الراشدة في القرن العشرين

أ . إبراهيم نويري
المركز الجامعي ـ تبسة ـ

## مدخل

قد يبدو للوهلة الأولى أنه أمر عجيب حقا أن يرتسم في أفق ساحات التدافع الحضاري ظهور مؤشرات التجهم للآخر وبوادر التنافي الحضاري والفكري بين الغرب والإسلام في هذه المرحلة بالذات، ذلك أن مثل هذه الإرهاصات قد تظهر ـــ بمراعاتنا لسنن حركة التاريخ ـــ بين حالتين حضاريتين متكافئتين في العدة المعرفية والعلمية والبشرية والمادية .. متقاربتين في المستوى الإنساني والطاقة الروحية والذهنية والاعتزاز بالذات .. الخ، أما أن تظهر مثل هذه البوادر والإرهاصات في مرحلة تاريخية وإنسانية يشهد فيها الغرب أوج الثراء والقوة المادية والعنفوان الحضاري واطراد الفتوحات العلمية والتكنولوجية المذهلة، وأن يواكب ذلك في الوقت ذاته انسجامه وتماهي شبه تام بين إرادة قيادته المركزية ورغائب وآمال شعوبه، فتقوم الوحدة الساسية ثم ترفد بالوحدة الاقتصادية والنقدية والتكتل العسكري والاستراتيجي بمعناه الشامل .. الخ؛ بينما نجد في المقابل أن العالم الإسلامي يعيش مرحلة حرجة بل في وضع أحسب أنه لا يوجد في هذه الدنيا من يحسده عليه، فهو يشهد ضعفا علميا ومعرفيا مشهودا، إلى جانب حالة من الوهن تسري في وحدته السياسية والاقتصادية، وينسحب هذا أيضا إلى مجالات التعاون العسكري والتقني والإعلام الثقافي ونحو ذلك؛ أقول أن تظهر بوادر إرهاصات التجهم الحضاري والثقافي بين الغرب والإسلام في هذا المنعطف التاريخي الحاد، فهو ما يشكل بحق مفارقة صارخة تستدعي الكثير من التأمل الجاد الحثيث، والبحث العميق في الخلفيات

وبواعث "الإرادة الخفية" التي تدفع بالكثير من الأوضاع صوب هذا الاتجاه، وتعمل بدأب وإصرار على تحقيق وتجسيد "إنجاز" الصدام الحضاري بين الإسلام والغرب[1].

**وقفة تاريخية**

من الناحية التاريخية البحتة نستطيع الحكم على العلاقة بين الإسلام والغرب أنها كانت في عموم مراحلها علاقات زئبقية "مضطربة قلقة"، ولا ريب أن العامل العقدي في هذه المعادلة كان حاسما في تأثيره، وحاضرا على الدوام، فإن معظم الكتابيين من يهود ونصارى في شبه جزيرة العرب كانوا ينتظرون بلهفة أن تكون النبوة الخاتمة خارج سلالات العرب، وهو ما يفسر مسارعة كثير منهم إلى التجهم المبكر في وجه الرسول الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ بل بإمكاننا الذهاب إلى أن بعض هؤلاء كان ينتظر الصراع مع الدين الجديد الخاتم، وأهله قبل بدء الوحي نفسه؛ يفهم ذلك من معطيين على الأقل، الأول إشتراك اليهود والنصارى ي جريمة تحريف الوحي الإلهي والاستهانة بقدسية النبوة، وإحساسهم بأن كتاب النبوة الأخير سيكون خلاصة أخيرة للدين الحق الذي طمسوا بتدبيرهم وكيدهم معظم وأهم معالمه؛ والثاني علم الكثير من علمائهم وحكمائهم من خلال صحائف الوحي أن النبيء الخاتم سيكون عربيا.

لقد تبدى ذلك منذ البداية، حتى أنه عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة انتظروا من بني إسرائيل باعتبارهم أهل كتاب بعض خصال السماحة والترحيب والبشاشة،

---

[1] ــ حديثنا في هذه المقدمة لا علاقة له البتة بما يسمونه حتمية خضوع المغلوب للغالب، وما يستنبطه هذا الخضوع من تقليد ومحاكاة لنموذج هذا الغالب؛ إنما المقصود: دوائر الإرادة الخفية في أمتنا التي تمثل طلائع الدسائس الاستعمارية، تلك التي تعمل بدأب على إبقاء وترسيخ منظومة الإلحاق الحضاري في محيطنا الفكري والمعرفي، حتى يظل العالم الإسلامي ضعيفا هزيلا في نموذجه، ومن ثمة تكون نتيجة الصراع الحضاري ــ كما يريدون ــ محسومة لصالح نموذج الحضارة الغربية وإنسانها وفلسفتها.

واعتقدوا أن اليهود إن ضنوا عليهم بمحبتهم ومؤازرتهم فلن يخلوا عليهم على الأقل بشيء من المهادنة والعطف، بيد أن المسلمين ما لبثوا إلاّ قليلا حتى تأكد لديهم بأن اليهود يكنون لهم ولدينهم ونبيئهم أسوأ العداء ويضمرون لهم كيدا لا آخر له ...

عندئذ نزل الوحي الكريم يصحح للمسلمين إفراطهم في حسن الظن وإطلاق المشاعر الساذجة دون اقتصاد أو دون ضوابط في الجهاز العاطفي، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2]، ثم اطرد الموقف ذاته مرات ومرات متتالية عبر مختلف مراحل التاريخ سواء من اليهود أو من النصارى على السواء، حتى أن الإنكليز عندما أسقطوا دولة الإسلام في الهند، ولما كان ثمن البقاء باهضا نتيجة ردود الفعل العنيفة أحيانا فقد سلم الإنكليز السلطة للهنادكة على أساس أن الوثنية أولى بالبقاء من الإسلام، وهو الموقف نفسه الذي أفصح عنه اليهود عندما سئلوا قديما: هل الوثنية أفضل من دين محمد؟ فقالوا: للوثنيين من عباد الصخرر: دينكم أفضل !!! فنزل قول الله تعالى تعقيبا على ذلك الكيد وفضحا لتلك السخائم الدفينة:﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**﴾[3].

إن جذور هذه المواقف أفصحت عن نفسها في شتى منعطفات التاريخ التي التقى فيها الطرف الإسلامي بإحدى قوى الغرب، سواء أثناء الحروب الصليبية أو في مرحلة الزحف الإسلامي في الأندلس المتصاعد من جهة جنوب غرب أوروبا، أو في فترات مواجهة الدولة العثمانية المسلمة التي توغلت خلال القرون الميلادية من الرابع عشر إلى السابع عشر بشكل أخص في جنوب شرق أوروبا والبلقان حتى إنها استطاعت حصار "فينا" العاصمة النمساوية مرتين بالرغم أنها تقع وسط مركز القارة الأوروبية، كما أفصحت

2ـــ سورة البقرة: 75.

3ـــ سورة النساء: 51.

هذه المواقف عن نفسها إبان حركة الاستعمار الغربي الحديث الذي تجلت طبيعته الصليبية بوضوح في الجزائر حيث تم تحويل مسجد "كتشاوة" بوسط العاصمة الجزائرية إلى كنيسة فور دخول قوات الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر، وقال يومها أحد الكرادلة الفرنسيين وهو يقف على عتبة المسجد: «لن يعبد محمد بعد اليوم في هذا المكان»! وهي إشارة واضحة وجلية للبواعث الدينية التي مثلت جوهر حركة الاستعمار الفرنسي في الجزائر[4]؛

---

[4]ــ كانت طبيعة الاستعمار الفرنسي للجزائر طبيعة صليبية صرفة، وهو ما أظهره المحتلون منذ الأيام الأولى من الاحتلال، كما تنبه له أيضا الجزائريون منذ البدأ. يقول الأستاذ المرحوم الدكتور يحي الدين زيان: «... وكان الدين الإسلامي هدفا كبيرا أمام الفرنسيين، إذ كان الاستعمار الفرنسي استعمارا صليبيا كما أعلنوا، ومن ثمة كانت أولى أعمالهم هدم المساجد الأثرية الرائعة وتحويلها إلى كنائس ... وقف الجنرال "روفيجو" يشير إلى الفرنسيين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة، فأشاروا عليه بجامع (كتشاوة) وهو من أجمل مساجد البلاد وأروعها، وكان في المسجد 4000 مسلم هجم عليهم الفرنسيون وذبحوهم عن آخرهم وهم يعتصمون ببيت من بيوت الله!»، «وفي 18 ديسمبر من عام 1832م كان هذا المسجد كاتدرائية للجزائر !! ولقد حولوا غير هذا المسجد مساجد أخرى كنائس، مثل مسجد "القصبة" وهو من المساجد التي ترتبط بها ذكريات إسلامية مجيدة، ولكن هكذا تفعل الصليبية العمياء! .. وفي خلال هذه الحملة الصليبية على أماكن العبادة الإسلامية قام أحد القسس المسيحيين هو القس "سوشيه" يتزعم هذه الصليبية الباغية، حيث كتب إلى ملك فرنسا عام 1839م منوها بأعمال الحاكم الفرنسي الصليبي: «إنه يريد أن يضاعف عدد الصلبان والكنائس في الجزائر .. وإن مولاي ليستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل "الماسيوفالييه" الذي اختار أجمل مسجد في قسنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة» .. فكانت مكافأة هذا القس الصليبي أن يصير أول راع لهذه الكنيسة التي قامت على أنقاض مسجد من مساجد الإسلام، «ومضت فرنسا في هذه الأعمال ضد الإسلام والمسلمين فتولت الإشراف على بيوت الدين وأملاكها، وتولت شؤون الحج، وصارت فرنسا الصليبية تراقب ظهور الهلال وتقرر بدأ الأعياد الإسلامية ... حتى لقد كتبت مجلة فرنسية تقول: «قد يجهل عامة الناس أن الإدارة الفرنسية في الجزائر قد أممت العقيدة الدينية فوضعت يدها على المساجد والأضرحة وغيرها

وعندما كان المسلمون من سنوات قليلة يتعرضون للذبح والإبادة الوحشية وعمليات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك صرح وزير الإعلام السربي "فليبور أوستويتش" منبها قومه إلى ضرورة استئصال شأفة الإسلام لما يمثله من أخطار على الحضارة الغربية وقيمها العامة قائلا: «إن أوروبا لا تدرك حجم الخطر الذي يهددها من وراء بقاء "علي عزت بيجوفيتش" رئيسا للبوسنة والهرسك، لأن خطره في المستقبل سوف يستشري، فالإسلام يتعاظم في كل مكان، والمسلمون لديهم العقيدة والأموال، والأهم من ذلك كله القوة البشرية المتزايدة، فإن لم يقض عليه الآن فإنه سيصعب علينا السيطرة عليه بعد انتشار نفوذ المسلمين في أوروبا»[5]؟؟؟

## العلاقة بين المتغيرات الدولية والتجافي الحضاري

إن التفاعل الحضاري والفكري الذي حدث بين الحضارتين الإسلامية والغربية لم يسبق له نظير في تاريخ تعاقبات دورات الحضارة الإنسانية، وذلك لأسباب عديدة منها

---

من بيوت الدين، واستولت على جميع الأوقاف الخيرية وادعت ملكيتها، كما تولت تلك الإدارة حق تعيين الأئمة وأرباب الفتوى والمؤذنين ... هذا ويتوقف ما يناله رجال الدين من هؤلاء وأولئك من أجور ومكافآت على مقدار إخلاصهم وطاعتهم ووفائهم للإدارة العامة الفرنسية في الجزائر» ... ومن أجل هذه الصليبية في بلد إسلامي بذل المبشرون جهودا كبيرة، وشجعت الإدارة الفرنسية بناء المعابد اليهودية والكنائس المسيحية، حتى لقد صار في الجزائر 327 كنيسة للمسيحيين و45 معبدا لليهود، بجانب 166 مسجد للمسلمين ليس غير! .. ولم تعترف الإدارة الفرنسية بالأعياد الإسلامية إلاّ في عام 1947، إذ ظل الموظف المسلم لا ينال إجازة في الأعياد الإسلامية إلاّ في هذا التاريخ! وفرضت على القضاة المسلمين أن يصدروا أحكامهم باسم الدولة الفرنسية، كما صارت الأحكام الإسلامية تستأنف أمام محكمة استئناف قضاتها يهود ومسيحيون ! ... » [د. بهاء الدين زيان، الجزائر أرض المعارك، دار الكتاب المصري، ط1، أكتوبر 1958 من ص 70 إلى ص 74].

[5] ـ انظر: ملف [الإسلام وصدام الحضارات] بمجلة الحرس الوطني، السعودية، عدد مزدوج، 164 – 165، ذو القعدة 1416هـ/ مارس – أبريل 1996م، ص 103.

دون شك المنهج التجريبي الذي جاء به القرآن الكريم، ودقة ضوابط العلاقة بين عالم المعنى وعالم الحس أو عالم الغيب وعالم الشهادة الذي التزم به عمليا ومنهجيا العقل المسلم ـــ على الأقل إبان الانطلاق الزاهر للحضارة الإسلامية ـــ واستطاع العقل الغربي أن يتمكن من الاستفادة المنهجية الواعدة القائمة على تلك الأسس الراسخة، التي تحولت فيما بعد إلى أداة عملية تطورت على إثرها حضارة الغرب؛ ولا شك أن كل المنصفين من مؤرخي الغرب وعلمائه لا ينكرون هذه الحقيقة التاريخية العلمية، فجامعات الأندلس المسلمة، وعلوم العرب المبهرة في الطب والكمياء والفلك والرياضيات، أكبر وأجل من أن تطمس بهوس الجحود والإنكار.

ومن تلك الأسباب أيضا بلوغ العقل البشري سن الرشد إبان مرحلة التوالي الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهو بلا ريب عامل مهم كذلك في معادلة التفاعل الحضاري، ومنها المصالح الاقتصادية بمعناها الشامل، فحجم هذه المصالح بين دول الغرب وأسواقه ومجموعاته، وبين دول العالم العربي والإسلامي، يتصدر سلم المصالح والتعاملات الاقتصادية القائمة في العالم اليوم؛ فكل هذه الأسباب التي ذكرناها، وغيرها تمثل حلقات متتالية من المتغيرات التاريخية الهامة، قد لعبت دورا في تخفيف وطأة التجافي الحضاري المركوز في أحشاء الإرث التاريخي لكل من الحضارتين الإسلامية والغربية؛ لكن ينبغي الانتباه في هذا الصدد إلى ملاحظتين هامتين:

الأولى: أن الحضارة الغربية المقصودة في هذا السياق نعني بها الدوائر التي تدين بالكاثوليكية والبروتستانتية، أما المجموعات التي تعتنق المذهب الأرثوذكسي فلها شأن آخر وطبيعة مختلفة في علاقاتها مع العالم الإسلامي، سنذكرها بعد قليل.

والثانية: أن خفة وطأة التجافي الحضاري نسبيا التي أشرنا إليها، إنما حدثت فقط على المستويات الفوقية، كالمستوى السياسي والاقتصادي والتقني أو الشيئي، أما البعد الثقافي والاجتماعي والفكري في هذه المعادلة، فنستطيع القول بأنه بقي على ثباته التاريخي إلى

حد كبير، وأن القدر الضئيل من التغيير الذي لامسه إنما بقي حبيس نخبة خاصة جدا، يمكن لنا أن نطلق عليها مصطلح: "أنتليجنسيا الحضارات".

أقول ذلك لأن المناهج الدراسية في الكثير من مدارس ومعاهد الغرب الكاثوليكي، وفي مقدمتها المدارس الفرنسية، ما تزال تلقن للتلاميذ، وكذا الطلاب في الجامعات، بأن العرب برابرة علوج، وأن الفضل كله في الحفاظ على أوروبا والغرب من همجيتهم، إنما يعود للبطل "شارل مارتر" (680 – 741م) الذي تمكن من كسر الزحف الإسلامي في الجنوب الغربي لأوروبا، في معركة بلاط الشهداء، التي دارت رحاها بين مدينتي "بواتييه" و"تور" بجنوب فرنسا، وذلك سنة 732م، وكان الفرسان العرب والمسلمون في تلك المعركة الشهيرة بقيادة البطل المغوار عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ت 114هـ/732م) الذي تمكن من احتلال بوردو وبعض المقاطعات في الجنوب الفرنسي، قبل استشهاده في بلاط الشهداء؛ ولا يخفى أبدا ما في هذا السلوك الثقافي الفرنسي من دلالات ومعاني العداء التاريخي، الذي يراد له أن يبقى راسخا مؤججا في الضمير الجمعي الغربي كله، لا الفرنسي وحده؛ ومن جهة أخرى فإن العدوان الثقافي الغربي يقوم الآن بحملات شرسة ضد الخصوصيات الثقافية الأخرى، وخاصة بعد أن سهل له مهمته القذرة ورسالته المنحطة، الانفجار الإعلامي المعاصر، المتمثل في الاتصالات السريعة، وشبكة الأنترنت والقنوات الفضائية، وغير ذلك من الأوعية الإعلامية والثقافية والمعرفية.

يحدث ذلك في صمت رهيب مطبق، بالرغم من الاتفاقيات الثقافية الرسمية التي ترعاها منظمة اليونسكو، وغيرها من المنظمات والهيئات المختصة المعنية بموضوع الخصوصيات الثقافية، واحترام عقائد وأفكار الحضارات المختلفة؛ وهو أمر خطير قد يؤدي على المدى القريب أو المتوسط إلى انتفاضة الكثير من هذه الخصوصيات والأنماط والهويات الثقافية المستهدفة.

بهذا التوصيف التاريخي نخلص إلى أن التفاعل الحضاري الذي ساد العلاقة الإنسانية بين الحضارة الإسلامية والغربية، رغم جدواه وأهمية بعض النتائج التي انبثقت عنه كنتيجة

موضوعية لحركة المتغيرات الدولية والإنسانية التي سادت سياقات هذه العلاقات التاريخية الإثنية، غير أنه لم يؤد على الصعيد الثقافي والفكري إلى ما هو مؤمل منه، خاصة فيما يتعلق باحترام الاتفاقيات الثقافية الدولية، ومراعي عنصر التباين الثقافي والعقدي، وتقديره كمعلم من معالم حقوق الإنسان الأساسية، وبالتالي كحق من حقوق الحضارات الإنسانية؛ بل إن التوتر الحاد أحيانا هو الذي صبغ الكثير من محطات ومراحل هذه العلاقة.

ولنذكر هنا مثل قصة الفتيات المسلمات اللائي طردن من مقاعد الدراسة بسبب خمار وضعنه على رؤوسهن !! حتى أن المفكر الفرنسي المسلم "رجاء غارودي" كتب يصف هذه الحادثة يقول: «إن ما حدث هو في رأيي لحظة جنون جماعي، لو رآها أحد سكان المريخ لشعر بالدهشة!».

وما لنا نستشهد بانطباع غارودي؟ ... فهذا فليب "جوانزاليس" نفسه ــ رئيس وزراء إسبانيا ــ صرح في التلفاز في تلك الأثناء معترفا بأنه مندهش لما يجري في فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامي! ثم تساءل قائلا: كيف تستطيع ثلاث فتيات يرتدين الحجاب أن يعرضن للخطر الهوية الثقافية لفرنسا؟!! ليستنتج جوانزاليس بأن الهوية الثقافية الفرنسية إنما تتعرض للخطر من الأفلام الأمريكية الهابطة المستوردة[6].

## الإسلام والغرب الأرثذوكسي

يرى كثير من الباحثين في تاريخ أوروبا والمتخصصين في مجال مقارنة الأديان والأعراق أن طوائف البروتستانت والكاثوليك في عالم الغرب المسيحي، ينتمون إلى حضارة واحدة لها سمات وخصائص محددة، لأن البروستانتية قد تمخضت تاريخيا عن

---

[6]ــ انظر : الشيخ محمد الغزالي(يرحمه الله): تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (سلسلة إسلامية المعرفة)، هرندن، أمريكا، ط2، 1412هـ - 1991م، ص 120.

الكاثوليكية كرد فعل عنيف ضد انحلال واستهتار الكنيسة الكاثوليكية، فكان لا بد من إصلاحات عامة، ظهرت على إثرها، أو نتيجة لها البروتستانتية؛ أما الأورثودكسية فلها تاريخ مغاير نسبيا فهي لم تخضع لبرامج الإصلاح الديني، ولم يتحمس رجالها للأخذ بأنماط التجديد والاجتهاد الداخلي الخاص بمعطيات وأسس هذا المعتقد.

ويذهب بعض المؤرخين والدارسين (منهم صمويل هنتجتن) إلى أن الأورثوذكسية تمثل حضارة لها خصوصيتها الذاتية ـــ حتى وإن كانت فرعا من دوحة الحضارة الغربية العامة ـــ فهي انبثقت أساسا عن الحضارة البيزنطية وورثت الكثير من مميزاتها، ولعل هذا أحد أسباب بقاء روسيا ومجموعات أوروبا الشرقية على هامش الحضارة الغربية، التي تمثلها أوروبا الغربية بشكل خاص ـــ بل بصورة قريبة إلى الاحتكار غير الإنساني ـــ خاصة على مستوى محافل ومنتديات التمثيل الرسمي النموذجي.

والدارس لفصول التاريخ الحديث، على الأقل منذ بدايات القرن العشرين الميلادي، وحتى أيامه الأخيرة، سوف يجد بأن الغرب الأورثدوكسي ـــ بالرغم من احتفاظ الذاكرة بشدة وطأة الاستعمار الفرنسي والإنكليزي ـــ كان أكثر عنفا ودموية تجاه المسلمين، أقول ذلك لأنني أعتقد بأن ما حدث لإخوة العقيدة في البوسنة والهرسك وكوسوفو وجمهورية الشيشان، لن ينساه التاريخ، إلى درجة أن سدنة الحضارة الغربية أنفسهم، شعروا بفداحة الجريمة، فسارعوا ـــ تحت مظلة قوات حفظ السلام الأممية ـــ إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة حضارتهم؛ وبادروا بقصف يوغسلافيا وشجب حملات التطهير العرقي والديني، وإظهار مئات المقابر الجماعية الفظيعة في كوسوفو، واعتبار "سلوبودان ميلوزوفتش" مجرم حرب يستحق المحاكمة الدولية، وكأنهم بذلك يدينون "الأورثودكس" أمام العالم، ويبرئون أنفسهم وحضارتهم من انعكاسات حرب دينية واضحة البصمات والغايات، حتى أن خبراء المحكمة الدولية لجرائم الحرب في يوغسلافيا سابقا أعلنوا ـــ ياهول المأساة ـــ عن اكتشاف أكثر من 400 مقبرة جماعية في إقليم "كوسوفو" وذكر بيان الخبراء أن مواقع هذه المقابر تنتشر عبر كامل تراب الإقليم، وأن

تقديراتهم كانت في البداية لا تتعدى وجود 200 مقبرة جماعية أو موقع جريمة جرى اقترافها في كوسوفو[7].

وفي نظري أن ما فعله الأورثودكس بالمسلمين، كان ترجمة للغل الدفين ضد الإسلام، فإن ذاكرة أوروبا الشرقية لا تستطيع نسيان ما قام به الأتراك العثمانيون من اجتياحات صارمة تحت راية الإسلام، فقد بدأت تلك الحلقات المتتالية باحتلال "أدرنة" سنة 1361م، ثم جاء بعد ذلك احتلال "صربيا"، عقب معركة كوسوفو الشهيرة سنة 1389م، ثم الاستيلاء على "تسالونيكي" أو "سالونيك" اليونانية في 1430م، وبعد أكثر من عقدين من ذلك التاريخ استولى السلطان الفاتح المسلم العظيم ـ محمد الفاتح (1429 – 1481م)

---

7ـ بلغ الحقد بهؤلاء العلوج الهمجية التي يدركها خيال ... يقول فضيلة الشيخ الغزالي رحمه الله: «سمعت في إذاعة لندن بنبأ الدكان الكبير الذي فتحه الصرب لبيع اللحم الإسلامي! إنه ليس لحما للأكل، إنه يقدم قطع غيار مطلوبة في جراحات شتى، يقول طبيب: أريد كبدا سليمة بدل هذه الكبد المقروحة! ويقول طبيب آخر: أريد كلية صحيحة بدل هذه الكلية المعطوبة! ويقول ثالث: هذه العين لا ترى وأحتاج إلى عين سليمة القرنية ... الخ، ويذهب المشترون إلى صربيا الكبرى !! ومعهم الأموال المغرية فإذا أصحاب فلسفة النقاء العرقي يقبضون على ألوف الشبان المسلمين بين السادسة والسادسة والعشرين، ويقوم الأطباء بالكشف عليهم وإعدادهم لما يراد بهم! والمعروف علميا أن القلب مثلا لا يصلح للعمل إلاّ إذا نزع وفيه حياة، أما إذا نزع من ميت فلا قيمة له وكذلك سائر الأعضاء الأخرى، ولذلك يرشح المحكوم عليهم بالإعدام لهذه الخدمة ... وقد رأى الصربيون أن المسلمين يصلحون لهذا الغرض فنفذ فيهم على نطاق واسع، يجاء بالشاب فيقتل، وقبل أن يسلم الروح تكون كبده أو كليتاه أو عيناه أو ما شاء الأطباء من جسمه قد تم نزعه وجرى تسفيره على عجل ليتحرك في جسد آخر، أو ليتحرك به جسد آخر !!! إن القوم يرون أنه ليس لنا الحق في الحياة، أو أننا ما دمنا مسلمين فلا نستحق أن نحيا، وغيرنا أولى بقلوبنا وأبصارنا !!! ما كنت أتصور النذالة تبلغ هذا القرار ولا الحقد علينا هذا الحد»، [محمد الغزالي: الحق المر، ج6، دار نهضة مصر، ط1، 1997م، ص 68].

على القسطنطينية سنة 1453م، وأنهى بذلك وإلى الأبد ـــ الوجود التاريخي للأمبراطورية البيزنطية؛ وكان العثمانيون قد استولوا على معظم أوروبا الشرقية الأورثودكسية بعد هذا التاريخ، لكن بعد مؤشرات ضعفهم، التي بدأت مع فشلهم في حصار فيينا عاصمة النمسا سنة 1683م، وأخذ هؤلاء الأورثوذكس يستردون مواقعهم الواحد تلو الواحد، فقد استردوا كييف الروسية سنة 1681، واستردوا المجر سنة 1687، واستردوا بلغراد وصربيا سنة 1718، أما بلغاريا التي فتحها الأتراك سنة 799هـــ/ 1396م؛ فقد ظلت تحت نفوذهم حتى أواخر القرن التاسع عشر، بل حتى أعلنت مملكة مستقلة عن الأتراك سنة 1326هـــ/ 1908م، وذلك بمعاونة الإمبراطورية الروسية قبل الثورة البلشفية؛ ولا يصح في هذا السياق إغفال وتجاهل حرب روسيا ـــ زعيمة الأورثوذكس ـــ مع الأتراك التي استمرت من 1768 إلى 1774م[8].

والواقع أن الغرب الأورثوذكسي ـــ خاصة روسيا تحديدا ـــ له عقدة عميقة شديدة التعقيد إزاء الحضارة الإسلامية، وهو لا يستطيع أبدا أن ينسى للإسلام سرعته في الانتشار، وقدرته على كسب الأفئدة والمواقع، حين تعمر عقيدته القلوب المخلصة البصيرة، هذه العقيدة التاريخية العميقة تكونت لدى القوم ـــ كما يذكر شيخ الرحالة العرب المعاصرين محمد بن ناصر العبودي في كتابه "بلاد التتار والبلغار" الذي نشرته هذه الأيام رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ـــ منذ أسلم الملك العظيم الخاقان الكبير "بركة خان بن جوجي خان جنكيز خان" خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وهو ابن عم السفاح هولاكو الذي قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله؛ فقد استطاع هذا الملك الهمام أن ينتصر على هولاكو وذلك سنة 661 هـــ، وأن يقيم دولة (الشمال الإسلامية) التي شملت جزءا كبيرا من بلاد الصقالبة (السلاف) في بولندا وبلاد البلطيق

---

8ـــ استعنت في ضبط تواريخ هذه الوقائع التاريخية بالملحق التاريخي المنشور في مؤخرة «المنجد في اللغة والأعلام» ط الحادية والثلاثون، دار الشروق، بيروت، 1991م.

وروسيا البيضاء ووسط إيتل (الفولقا) فضلا عن أجزاء مما يعرف الآن بأنه من بلاد الروس الأصلية؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون قصة هذا الرجل العظيم الشهم؛ نذكر منهم: المقريزي وابن فضلان وابن خلدون والنويري والذهبي والعيني؛ ومنهم من خصه بمؤلف كامل، كالشيخ نجم الدين أبو الرجا الزاهدي صاحب كتاب "الرسالة الناصرية" نسبة إلى الملك "ناصر الدين بركة خان" .. والشيخ محمود الرمزي في كتابه الجامع "تلفيق الأخبار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار".

وكان هذا الملك أول من أسلم من ملوك التتار أو المغول الذين حكموا الأصقاع الشمالية الباردة، وإليه ينسب بعض المؤرخين الفضل في حماية الكثير من ديار الإسلام من همجية هولاكو الذي كان يفكر بعد اجتياحه بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة 656 هـ، والاستيلاء على الشام سنة 658هـ، في غزو مصر بأربعمائة ألف من عساكره؛ وهو أول من فتح الباب لتشجيع قومه من التتار والروس على اعتناق الدين الحق، الأمر الذي حدا بالمؤرخ الروسي (كارامزين) إلى القول: «إن التتار لما قبلوا الإسلام أقبلوا عليه بالكلية، ولا سيما الملك بركة خان، فإنه أعلن نفسه بأنه حامي القرآن والشريعة والدين وخادمها، فأسلم قوم التتار كلهم تبعا لسلطانهم»[9].

فهذه التركة التاريخية الثقيلة بين الإسلام والغرب الأورثوذكسي ـــ وقد عرضنا لبعض منعطفاتها بإجمال دون تفصيل ـــ كان لها في واقع الأمر زخم هائل من المضاعفات عبر معظم مراحل التاريخ؛ ولعل هذا ما يفسر ضراوة الوحشية، والروح اللاإنسانية القائمة، التي أظهرها علوج يوغسلافيا ضد مسلمي كوسوفو المسالمين العزل؛ وهو ما يفسر كذلك وحشية وعنجهية الروس ضد المسلمين الشيشانيين هذه الأيام، وخلال هذا المنعطف الجديد من حركة التاريخ؛ وليسمح لي القارئ الكريم في نقل هذا الجواب من

---

[9] ـــ محمد بن ناصر العبودي، بلاد التتار والبلغار (سلسلة دعوة الحق)، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد 188، 1420هـــ، ص 15 – 18.

مقابلة أجرتها مجلة التايم في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس 1996م، مع الجنرال "راتكو ملاديتش" قائد جيش صرب البوسنة .. وله بعد ذلك أن يستنتج ما شاء من دلالات، وأن يستحضر تداعيات وانعكاسات التركة التاريخية التي تحدثنا عنها؛ فقد طرحت المجلة هذا السؤال: يبدو أنك تؤمن بأن دولة إسلامية في البوسنة تهدد أوروبا بـ "الأسلمة"، فهل هناك هذا الخطر حقا؟ ... ووجد هذا الجنرال في طيات هذا السؤال فرصة مناسبة لتحذير أوروبا كلها ومعها حراس الحضارة الغربية من مغبة خطر الإسلام والوجود الإسلامي في الغرب، وبنى إجابته على تركة الماضي التاريخي، حيث قال: «لقد قام الأتراك بطرد أعداد كبيرة من اليونانيين الأورثودكس من رأس الجسر الذي استعادوه على الجانب الغربي من منطقة بوسبورس والدردنيل، والآن نحن نشهد اندفاعة إسلامية من خلال جنوب بلغاريا ومقدونيا وكوسوفو وألبانيا والبوسنة ... الخ، فإلى أين تنتهي هذه الاندفاعة؟ هذه الرحلة لن تنتهي إلاّ في باريس، فاسألوا الناس هناك كم عدد المساجد التي رأوها في طفولتهم وكم أصبحت الآن؟ فالخطر حقيقي جدا بسبب زخم الانفجار السكاني للمسلمين، لأنهم يهددون أن يصبحوا أغلبية ليس في مهد المسيحية الأورثوذكسية في البلقان فقط، بل بالوصول إلى جبال الأرينيس»[10].

وهناك تصريحات أخرى كثيرة وتحاليل وتعليقات إعلامية رافقت الحملات العسكرية الشرسة التي استهدفت استئصال وإبادة العنصر الإسلامي، سواء من ألبان صربيا أو من

---

[10]ـ يبدو أن دعوة هذا الجنرال الحقود قد لاقت استجابة لدى بعض الدوائر الغربية، ومنها الدوائر الثقافية والدينية، كان آخرها وأكثرها حساسية تصريحات الكاردينال "جياكو موبيفي" أحد أبرز المرشحين لخلافة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، التي دعا فيها إلى طرد المسلمين من أوروبا؛ وقد أدان شيخ الأزهر الدكتور "محمد سيد طنطاوي" وطائفة من العلماء المسلمين هذه التصريحات، وطلبوا من البابا الحالي (يوحنا بولس الثاني) التدخل وإنكار ما دعا إليه الكاردينال "بيفي"، لما قد ينجر عن هذه الدعوة من فتن دينية وأخطار إنسانية.

الكوسوفيين، أو من مسلمي الشيشان والقوقاز، وكلها تترجم في وضوح تام عن ضغائن الأورثوذكس المتوارثة جيلا عن جيل ضد الإسلام وأهله وقيمه النبيلة.

## الحضارة الغربية ومركزية الهيمنة

من المناسب الآن، بعد عروجنا، أو مرورنا على هذه المحطات التاريخية، التي قد تساعد في محاولة تكوين رؤية موضوعية عن العلاقة بين الإسلام والغرب، نطرق أهم جزئية في مقالنا هذا، ونقصد بذلك سمة "المركزية" التي تعتبر القاعدة الثابتة في تأسيس بنية وجوهر ثقافة الغرب!! فإذا تغيرت مواقع الإيديولوجيا أو مفاهيم الاقتصاد أو مقتضيات السياسة، أو غير ذلك من المجالات .. فإن هذا البعد ـــ تمركز الغرب ـــ يظل ثابتا تماما، لا يسمح له مطلقا بأي هامش من الحركة، مهما بلغت وطأة المتغيرات المرافقة لصيرورة حركة الواقع والفعل الإنساني، وأعتقد أن هذا النزوع الثقافي الغربي يترجم عن عقيدة عميقة في أغوار التكوين النفسي والفكري للمؤسسة الغربية والإنسان الغربي، فمنذ البداية ظل الغرب يعتقد بأنه يمثل المركز، وأن غيره يمثلون الأطراف، وأنه الصوت وغيره الصدى، وأنه القطب، وغيره الآفاق القصية، ونحن حين نقوم بمراجعة تاريخية بهذا الصدد، سوف نجد الذاكرة الثقافية الغربية مترعة بخيالات الشعور والإحساس بالقيمة الاستثنائية لمكانة الغرب الحضارية والإنسانية؛ ومقتضى هذا الشعور والإحساس عمليا ضرورة إلزام الآخر الحضاري بالاندراج الطواعي أو القهري تحت ظلال المركز، والتفريط في مقومات وجوده المستقل، وخصوصياته الثقافية والحضارية؛ إن هذا الشعور الثقافي الاستعلائي المقيت هو الذي يغذي الآن الاتجاه المتسارع نحو تجسيد فكرة العولمة (Globatization) أي جعل النمط الحضاري الغربي نمطا مثاليا يجب استنساخه وتمثله والاقتداء به، في كل مكان من المعمورة، وفي مختلف الأصعدة: الثقافية والسياسية والفكرية والاقتصادية ونحوها.

لذلك كان من الطبيعي في هذا السياق المفعم بالتوتر الحضاري والثقافي، أن تبرز صيحات التحذير وأصوات الاحتجاج، ضد هذه النزعة المعتقة بروح الاستكبار العرقي هذه الروح المعتكزة على ميتافيزيقا تميز رقي الإنسان الغربي والثقافة الغربية .. وقد تشكلت تلك الصيحات والأصوات في صورة تكتلات وحركات سياسية وتيارات اجتماعية وثقافية تدعو للعودة إلى الذات والتمسك بمقومات الهوية، وفي صورة مشروعات فكرية، أخذت أبعادا حضارية وإنسانية شتى، بما في ذلك تلك التي ظهرت خلال عقود متفرقة من القرن العشرين، مثل ما كتبه الفرنسي "رنيه دو بو" في كتابه "إنسانية الإنسان" .. الذي يقول في إحدى صفحاته مهاجما بعد خلو القصد والمعنى المقنع من حياة الحضارة الغربية، ومدى إندياح مساحات القلق في نفسية إنسانها: «إن الجذور العميقة للقلق موجودة في البنية النفسية للفرد، كل فرد من أفراد هذه المجتمعات؛ وأكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة فقدت معناها ... إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن، تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية»[11].

ومن أبرز الدراسات الاحتجاجية الناقدة أيضا ما كتبه الألماني "أوسفالد شبنجلر" في كتابه (أفول الغرب) الذي كتبه بين 1918 و1922م، كما نجد أيضا الأمريكي "تشارلز فرنكل" صاحب (أزمة الإنسان الحديث)، والأنجليزي "كولن ولسون" في كتبه (اللامنتمي) و(رحلة نحو البداية) و(سقوط الحضارة) الذي بدأ مقدمته بقوله: «مرت سنوات وأصبح الشخص القلق الذي سميته (اللامنتمي) بطل عصرنا، وكنت أنظر إلى حضارتنا نظرتي إلى شيء رخيص تافه، باعتبار أنها تمثل انحطاط جميع المقاييس

---

[11]— رينيه دوبو، إنسانية الإنسان (نقد علمي للحضارة الغربية) — تعريب الدكتور نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، ط1، 1979م، ص 47.

العقلية»[12]، ... وهناك أيضا الفرنسي إندريه ماليروا Malraux (1901 – 1976) في كتابيه (إغراء الغرب) و(مصير البشر) ... وقائمة هؤلاء النقاد طويلة تحتاج لدراسة مستقلة لما تنطوي عليه أفكارهم من دلالات وأبعاد عميقة.

أما المشروع الفكري الذي يتمتع بثقل خاص فهو مشروع المفكر المسلم "رجاء غارودي"، لكون صاحبه فيلسوفا دارسا للتاريخ والحضارات الإنسانية، فضلا عن تعمقه في إيديولوجيات ومذاهب وأدبيات الحضارة الغربية، تلك التي خرج هو نفسه من رحمها الثقافي؛ ففي معظم مؤلفاته ــ خاصة تلك التي كتبها بعد إسلامه ــ يهاجم غارودي مركزية الحضارة الغربية ونزوعها القهري الاحتوائي ضد الآخر الحضاري، وقد أفصح في آخر كتاب له المعنون (أمريكا طليعة الانحطاط: كيف نواجه القرن الحادي والعشرين) عن الأبعاد والخطوط العريضة التي يتألف منها مشروعه الفكري، الذي يبشر من خلاله بمنهجية جديدة لحوار الحضارات والثقافات، ونبذ فكرة الصراع القائمة على النزعة المركزية واستعمار التاريخ؛ وهي فكرة جوهرية في تركيبة الحضارة الغربية؛ فأمريكا ــ في نظر غارودي ــ التي تعتبر أقوى ممثل لحضارة الغرب الآن، إنما تحدد وجودها التاريخي والجغرافي بمعلمين رئيسيين هما: سحق الهنود الحمر واقتلاعهم من أرضهم وسلبهم مصادر ثروتهم لا سيما القطن والثروة الحيوانية .. ثم العبودية التي تمثل انتحار حقيقيا لقيمة إنسانية الإنسان، لأن أمريكا في بداية تأسيسها عمدت لتشغيل أفواج الرقيق التي تم استجلابها من إفريقيا، وبعض الجزر المأهولة بذوي البشرة السوداء؛ ويطلق غارودي على هذه المأساة مصطلح "الملحمة العنصرية" التي تشكل جوهر الثقافة الأمريكية المرسخة في الكثير من أفلام العنف الاستعراضية الأمريكية؛ لكن غارودي يسحب هذه السمة، أو الصفة الفارقة على كيان الحضارة الغربية كله، مستندا على دراسة التاريخ ومقارنة الأبعاد

---

[12]ــ كولن ولسون، سقوط الحضارة، ترجمة أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت،ط3، 1982 م،ص 5.

والأسس المؤثرة في المضامين الروحية والفكرية والإنسانية ــ للحضارات البارزة في تاريخ البشرية.

وفي الأخير يدعو غارودي إلى ضرورة اندلاع حركة عصيان حضاري، ضد مخاطر الهيمنة الأحادية والتحكم المركزي في آليات النظام العالمي، لأن هذا الوضع لا يمكن له أن يتجذر خلال القرن الحادي والعشرين؛ ومن ثمة فإن المجابهة ملقاة على عاتق النخب المثقفة، أو إنتلجنسيا الحضارات، وذلك يمثل مساهمة على الصعيد الثقافي لتعزيز استقلال الشعوب، وحماية الخصوصيات الثقافية والعويات الفكرة والحضارية، من الاندثار والذوبان والتشكل وفق إرادة الآخر الحضاري؛ فالرهان قائم بحدة على هذا المستوى في بدايات القرن الحادي والعشرين، لكن لا ضمان ــ بنظر غارودي ــ لتحقيق المغايرة الحضارية الفعلية إلاّ بوضع حد للتاريخ الحيواني للإنسان ــ كما قال ــ والذي تجسده اليوم القهرية الحضارية الغربية.

## الحوار أداة الوضع الحضاري المرتقب

لكن بالرغم من شدة روح التوتر التي تسود الميدان الفكري، فإن العقلاء من الدارسين يتناولون الإسلام والحضارة الغربية كثقافتين كبيرتين لهما خصوصية فريدة في تاريخ الحضارات الإنسانية، بل إن بعض الباحثين في الحضارة يدعون لدراستهما كمصيرين متوازيين، وإن مستقبل البشرية سيكون رهن تعارف وتقارب حقيقي بينهما؛ لذلك فإن تيارا له وزنه من العلماء والمثقفين في الغرب، ما يزال يتشبث بهذا الأمل، ويبشر بالحوار المسؤول الفاعل بين الحضارتين المتميزتين، وهذا التيار يحاول دوما، وباستمرار، اعتراض سبيل من يعملون لتعميق الفوارق وتأجيج روح الصراع، فعندما ظهر أمثال "سلمان رشدي" صاحب (آيات شيطانية) والكاتبة البنغالية "تسليمة نسرين"، التي تقيم حاليا بالسويد، برز في الوقت نفسه كتاب خيرون من أبناء الغرب يريدون إنصاف الحق، وقطف ثمار التعارف الإنساني والانفتاح الثقافي، ومن هؤلاء أذكر ــ على سبيل المثال فقط ــ الكاتبة الفرنسية "آن ماري ديلكامير" صاحبة كتاب (الآيات الملائكية: محمد

كلام الله) والتي نالت مؤخرا جائزة التضامن الفرنسي ـــ العربي، وقد انتقدت هذه الكاتبة ـــ صاحبة الضمير اليقظ ـــ الغرب ودوائر القرار داخل حضارته، أثنت باللائمة على قومها، خاصة المثقفين منهم، لعدم إنصافهم للإسلام، وجهلهم بالأبعاد الحقيقية المبهرة لشخصية رسول الله ﷺ والسعي المتعمد لتشويه سمعته، والحط من قيمة الدين الذي بعث به؛ ويوجد من بين هؤلاء الكتاب والمفكرين أيضا الإيطالي "سير جيونوجا" الذي يعمل أستاذا للغة والأدب العربي بالجامعة الكاثوليكية بميلانو، فمن الكلمات المشهورة عنه قوله: «إن الإسلام بعيد كل البعد عن أن يكون ديانة ظلامية»، وعندما تم فتح مسجد روما، انتقد سير جيو المتطرفين الذين اعتبروا بناء مسجد روما فضيحة وعارا في حق الكاثوليكية ووصفهم بأنهم يتبعون خطى "بينيتو موسيليني" الزعيم الفاشي الذي قتله الشعب الإيطالي، سنة 1945م، هذا الزعيم الذي كان يقول خلال سنوات الثلاثينات من القرن المنصرم: «إنه لن يسمح ببناء مسجد روما، إلاّ في حالة السماح ببناء كاتدرائية في مكة»! ... والمرء يعجب لهذا القول، في وقت تغلق فيه أبواب الكنائس في عقر ديار الغرب، لعدم وجود من يرتادها، وبعضها أجرها أو اشتراها المسلمون وحولوها إلى مساجد؛ فهذا التيار إذن ـــ كما رأينا ـــ له أنصاره ومحبوه في الأوساط الثقافية الغربية، وله رموز بارزون أيضا، حتى إن المستشرق الفرنسي الكبير الراحل "جاك بيرك" ـــ وهو يعد من تلك الرموز الفكرية والثقافية ـــ عندما حضرته الوفاة يوم: 27 يونيو 1995م، كان آخر ما تلفظ به من كلمات: «أنا كاثوليكي مؤمن، ولكن الإسلام ليس غريبا عني» بيد أن المشكلة تظل فيما أرى، في التيار المهيمن، الذي يملك النفوذ والقرار والتأييد في المؤسسات الغربية بشكل عام، فهذا التيار الذي تبنى سرا وعلنا عنف العلمانية، له في حقيقة الأمر مستندات وقوى دفع كثيرة، في مختلف مواقع ومناشط المجتمع الغربي، بل إننا نجد العنصر اليهودي والصهيوني حاضرا بقوة في حركية قوى الدفع هذه، طالما أن معادلة الحوار بين الثقافات والحضارات يعني بصفة خاصة استثنائية الثقافة والحضارة الإسلامية؛

لذلك فإنني أعتقد بأن تغليب اتجاه الصراع والاحتواء على اتجاه الانفتاح والتواصل والحوار داخل دائرة تأطير هذه المعادلة، له مؤثرات عقدية واضحة، خاصة ما يتعلق منها بالموروث العقدي الديني اليهودي، فهذا الموروث تحديدا ــ كما هو شائع ــ يشكل "الصراع" أحد أهم مكوناته، فقد ورد في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين أن (يعقوب) صارع (الله) مصارعة قاسية دامت ليلة كاملة !! لكن يعقوب الهزم ... وبعد هزيمته تشبث بالله وأبى تركه حتى نال منه لقب "إسرائيل" ... ؟ وهذا اللقب "الفخري" يمنح اليهود ــ طبعا حسب معتقدهم ــ مترلة وقيمة استثنائية بين أمم الدنيا؛ فإذا نحن وجدنا تحالفا عقديا بين الموروثين اليهودي والنصراني يصل إلى حد جمع نصوص (التوراة) ونصوص (الإنجيل) في كتاب واحد، وإذا عرفنا بأن رجال الدين المسيحي بالرغم مما حدث من تزوير مقدس معروف !! ما زالوا يرددون عن العهدين القديم والجديد مقولة إن: «الكتاب المقدس هو صوت الجالس على العرش، كل سفر من أسفاره أو إصحاح من إصحاحاته، أو آية من آياته، هو حديث نطق به الكائن الأعلى» أدركنا مدى مساحات الاختراق اليهودي للذاكرة المسيحية وللموروث الديني النصراني، وبالتالي للحضارة الغربية، وفكر هذه الحضارة ومؤسساتها المختلفة، ومن ثمة فلا ينبغي أن نعجب كثيرا إذا وجدنا بأن الحركات اليهودية والصهيونية تقف وراء الفكر العلماني الغربي المتطرف، ونشجع الاتجاهات المعادية للإسلام والعرب والحضارة الإسلامية، ولنذكر هنا مثلا الصهيوني "كورث تشولسكي" المعادي للإسلام ومنهج حياته وحضارته، وصاحب شعار «إسرائيل أرض الميعاد وملتقى يهود العالم» فهو مؤسس جائزة (نادي القلم) بالسويد، وقد منحت هذه الجائزة الصهيونية القذرة لسلمان رشدي سنة 1992، ولتسليمة نسرين سنة 1994، ودلالة واضحة لا تحتاج إلى تعليق[13].

---

[13] ــ أثبتت دراسات كثيرة متخصصة في اليهودية ومقارنة الأديان، منها كتابات الدكتور حسن ظاظا، والدكتور عبد الوهاب المسيري، مدى تغلغل الفكر اليهودي التلمودي في البنية النفسية

إن الثقافة الغربية التقليدية التي أسهمت عدة عناصر فلسفية وفكرية وأسطورية في تكوينها، تزعم بأن محدداتها التاريخية تتمثل أساسا في التراث الإغريقي ـــ الروماني ـــ البيزنطي، واليهودي ـــ النصراني، ثم تطورت عبر تعاقب القرون الطويلة لتصل إلى صورتها النهائية، لكن قد يكون في هذا الزعم تنكر لجزء من أصول الثقافة الغربية، التي تعود للأجناس التي كانت تستوطن آسيا الصغرى ومناطق حوض نهري ألبو والراين، وأهمها العنصر الجرماني، لأن أوروبا من أواخر مناطق الأرض التي انزاح عنها الجليد، ومعنى ذلك أن أوروبا يفترض فيها أن تدين بالفضل العميم لآسيا، سواء من جهة السلالات البشرية، أو من جهة الدين .. فالمسيحية التي انتقلت إليها عن طريق اعتناق قسطنطين الرابع لصورة محرفة مشوهة منها، هي أيضا ديانة آسيوية المنشأ والميلاد.

ولعل سر اندهاش أوروبا وولعها بالشرق ردحا طويلا من الزمن يعود لمؤثرات الحقيقة التاريخية التي ذكرناها، والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: إذا كان الغرب يعود في أصوله الأولى إلى أرومة الشرق الذي كان يشكل الإسلام أهم أصباغه ـــ بل يمثل فيه مكان القلب من الجسد ـــ ألا يمكن مع بذل الجهود الفكرية الصحيحة أن يحصل

---

والعقلية للإنسان الغربي وفكرية الحضارة الغربية، فإذا نحن أبصرنا حدود الغل الذي يكنه اليهود للإسلام ونبيه وحضارته، ثم استحضرنا أثر اليهودية في النصرانية وكذا في المؤسسات العلمانية الغربية؛ أمكن لنا بيسر تحديد وجهة الموقف الذي يقفه الغرب من الإسلام .. فلنقرأ مثلا هذه الفقرة الطافحة بسخائم وضغائن اليهود تجاه نبينا الكريم «أبناء إسرائيل اعلموا أننا لن نفي محمدا حقه من العقوبة التي يستحقها، حتى ولو سلقناه في قدر طافح بالأقذار وألقينا عظامه النخرة إلى الكلاب المسعورة لتعود كما كانت نفايات كلاب لأنه أهاننا وأرغم خيرة أبنائنا وأنصارنا على اعتناق بدعته الكاذبة، وقضى على أعز آمالنا في الوجود، لذا يجب عليكم أن تلعنوه في صلواتكم المباركة أيام السبت، وليكن مقره في جهنم وبئس المصير» من سفر حازوحار الذي طبع بالفرنسية أول مرة سنة 1907م، الجزء الثاني.

التقارب الجاد بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وأن يكتشف العقل الغربي ـــ الباحث عن الحقيقة ـــ ذخائر الإسلام من جديد؟ !

إن الحضارة الإسلامية تترهل وتضعف لكنها لا تموت، لأنها تحمل في جوهرها ومكوناتها كتابا خالدا انتهى إليه الوحي الإلهي كله، وتجمعت في ثناياه كل الرسالات، فهو وإن كانت ألفاظه وكلماته عربية المعاني، إلاّ أنه مطلق بخصائصه ودلالاته، وكل أمة من أمم الدنيا تستطيع أن تنتفع بما فيه من هدايات عامة وسنن كونية واجتماعية، كما تحس أنها معنية بمضامينه، وأن خطابه موجه إليها، وهذه الفكرة تؤكدها حقيقة أن الآيات الكريمة التي نزلت تتحدث عن عالمية الرسالة الخاتمة سبقت زمنيا تشكل الجماعة المسلمة الأولى ذاتها؛ من هذا المنطق فإن حوار الحضارة الغربية مع الإسلام من حقه أن يرتكز على عمق الخصائص المطلقة التي تتجاوز أبعاد الزمان والمكان، وخصائص أصيلة في نسيج الخطاب القرآني الذي خلد الرأي الآخر، وحكم بأن قراءته ذكر وبركة، تزكي قارئه وترفع شأنه عند خالقه، فهذا البعد ـــ بنظري ـــ يمثل ضمانة حقيقية لتأطير وإنجاح هذا الحوار، ولذلك ينبغي التشديد عليه ومنحه قيمة إضافية خاصة، لاسيما إذا كان الواقع الإسلامي يتسم بلا مبالاة حادة إزاء قضية مستقبل الإنسانية، وباضطراب ووهن فكري صارخ ... وهي حالة سلبية تجعل كل الأذهان تعتقد بكون الإسلام لا يمثل وصفة موضوعية ناجعة لحل معضلات الحضارة الإنسانية في واقع راهنها أو في آفاقها المستقبلية.

## خاتمة

نخلص بهذ التحليل، وتفكيك جوانب هذه الرؤية الفكرية، إلى أن الحضارة الغربية في مرحلتها الراهنة التي تكرس في الواقع الإنساني مبادئ المركزية وروح الهيمنة، وترسخ مثالها ونموذجها، لا يمكن لها أن تتجاوز الحضارة الإسلامية والمذهبية الإسلامية، المرتكزة هي الأخرى على ثبات الوحدانية في الاعتقاد، وخاصية العالمية في الدعوة والبلاغ، وشمول التشريع بالاجتهاد واستيعاب المستجدات وتميز الرؤية للإنسان والكون والحياة؛ فالقول إذن بأن النموذج الليبرالي الغربي يمثل نهاية التاريخ، كما يدعي المفكر الياباني

المتأمرك "فوكوياما" أو أن صدام الحضارات سيكون أكبر معلم يميز أحداث الألفية الثالثة، وذلك باشتراك وتحالف الحضارة الإسلامية مع الحضارة الكونفوشيوسية ضد الحضارة الغربية، كما أشار إلى ذلك الأمريكي "صمويل هنتجتن" يظل في رأيي تجديفا في المجهول، فلا أحد من الناس يعلم بدقة وعلى وجه اليقين إلى أين يسير العالم، وكيف سيكون مصيره ... فكل هذه الافتراضات أساسها الرؤى والتقديرات الخاصة، أو الاجتهادات الفردية، حتى أن الغرب نفسه يبدو أنه يتوجس خيفة من بعضه البعض، وما تزال هناك فجوات عميقة بين الحضارة الغربية الشرقية الأورثوذكسية، والحضارة الغربية الكاثوليكية البروتستانتية، والحضارة الغربية الفسيفسائية الأمريكية ــ الكندية، وهو ما حدا بهنتجتن ــ صاحب فرضية صراع الحضارات في آخر حوار له مع مجلة ــ العلوم الإنسانية الفرنسية، إلى شن حملة ضد السياسة الخارجية الأمريكية في عهد الرئيس "كلينتون" واصفا إياها بالتقصير في تفعيل آليات التواصل والانفتاح على دول أوروبا الغربية خاصة منها ألمانيا تحديدا !! أما نحن العالم الإسلامي والعربي فليس أمامنا سوى التمسك بمسلماتنا وخصوصياتنا الإنسانية والحضارية، وتفعيل قيم الخير والتعاون والحب بين بني البشر جميعا؛ كما يجب على المراكز الثقافية والفكرية المتخصصة عندنا استغلال واستثمار مساحات وهوامش التلاقي الثقافي والحضاري بين الإسلام والحضارة الغربية، خاصة إذا كانت هذه المساحات على درجة فاعلة من المسؤولية والشعور بالمستقبل الإنساني، مثل ذلك الموقف الشجاع الواعي الذي أعلن عنه ولي العهد البريطاني الأمير "تشارلز" سنة 1993 في الكلمة التي ألقاها بمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، حيث قال بمنتهى الوعي بالحقيقة التاريخية المتمثلة في سنة التثاقف والتمازج الحضاري: «إذا كان الغرب يسيء فهم طبيعة الإسلام فما زال هناك جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للعالم الإسلامي، إنه نقص نعانيه من دروس التاريخ الضيق الأفق الذي ورثناه، فالعالم الإسلامي في القرون الوسطى من آسيا الوسطى إلى شاطئ الأطلسي كان يعج بالعلماء

ورجال العلم، ولكن بما أننا رأينا في الإسلام عدوا للغرب، وثقافة غربية بنظام حياتها ومجتمعها، فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا» .. ثم التفت الأمير "تشارلز" باتجاه المستقبل الحضاري واستلى قائلا: «لم يعد باستطاعة العالمين الإسلامي والغربي البقاء بعيدين عن بعضهما البعض، وعدم الاشتراك في جهد مشترك لحل مشاكلهما المشتركة .. يجب أن نساهم معا في خبراتنا، وأن نشرح أمورنا كل منا للآخر، لنتفهم ونتسامح ونتحمل معا ..».

إن مستقبل الحضارة الراشدة، سوف يكون حتما رهن السلوك الراشد، ورهن احترام الخصوصيات الفكرية والحضارية، ووضع حد لممارسات العدوان الثقافي الغربي والقهرية الحضارية الغربية، وفتح القنوات الفاعلة للحوار الحقيقي بين شتى الأنساق الفكرية والمنطلقات الحضارية، قصد السعي لتأسيس نظام عالمي إنساني عادل تتعايش في ظلاله جميع المجتمعات والمجموعات البشرية، قوامه توازن المصالح والتعاون في دائرة المشترك الإنساني العام، واحترام الخصوصيات الحضارية والاجتماعية؛ ولا ريب أن الإسلام العظيم الذي جمع عقيدتين على وسادة واحدة يوم أباح للمسلم الزواج بالمرأة الكتابية ومصاهرة ذويها بالحسنى، أحرص الأديان والحضارات والثقافات والمناهج على مبدأ الانفتاح والتنافذ، بدل الانغلاق والتنافي، وذلك إذا كانت العلاقات والمعاملات الدولية وفق معايير وموازين الحق والعدل، وأي منصف بمقدوره أن يرى التطبيقات العملية المذهلة والأمثلة الحية لهذا المبدأ في الحقب والمراحل المختلفة من صيرورة الحضارة الإسلامية ومسارها التاريخي، وأن يستنتج ما يناسب هذا المقام من مرئيات وأحكام.

في آخر هذا المقال بودي الإشارة إلى أن هذه الرؤية الفكرية لا تمثل أكثر من مقاربة، أو محاولة لفهم جدلية العلاقة بين الإسلام والغرب، انطلاقا من الأبعاد العقدية والتاريخية، مع البحث عن إمكان حصول تقارب وتعاون فاعل بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ومدى انعكاس تداعيات هذا التقارب ـــ كفرضية حضارية ـــ على مستقبل الإنسانية، ومستقبل الحضارة الراشدة الخيرة؛ مع قناعتي التامة أن هذه الرؤية لا تمثل أيضا أكثر من

غرفة ماء زجاجية صغيرة داخل أوقيانوس عظيم، وهو ما يعني جدوى تتابع الجهود الفكرية وبلورة المزيد من الرؤى والأفكار في هذا المحور الفكري المتعلق أساسا بمستقبل العالم، وربما يمكن أن تكون عليه الحضارة في أفقها القادمة.